

رائد القصة القصيرة في السوربة الحد يثة- زكريا تامر

اصغر علي بيك

المحاضر المتقاعد في كلية سوغام، كشمير

المقدمة

لمعت في السوربة الحديثة كثير من الأسماء الذين لعبوا بدورهم في تطور فن القصة القصيرة وترقيته، وقد شجعهم أسباب مختلفة، ومنها التغير الذي أخذ يحدث في المجتمع السوربي على مختلف مستويات الحياة ولا سيما على صعيدي التعليم والحياة والسياسة، ثم ظهور الصحافة على نطاق واسع التي ساهمت مساهمة جبارة في تطوير وترقية هذا الفن، أما الأسماء التي برزت في هذه البلاد، فمنهم: محمد النجار وعلي خلقي وشكيب الجابري ووداد سكاكيني و محمد الحاج حسين إبراهيم صموئيل وأحمد زياد محبك وإسكندر لوق وألفة الإدليبي وبيديع حقي وجان ألكسان وجورج سالم وحسن يوسف وحسيب كيالي وحيدر حيدر وخديجة الجراح ودريد يحيى الخواجة ودلال حاتم ورياض عصمت ورياض نصور وسعيد حورانية وشوقي بغدادادي وعادل أبو شنب وعدنان الداعوق ووليد إخلاصي وعبد الله عبد وغادة السمان وعبد السلام العجيلي و خليل الهنداوي ومظفر سلطان وعلي الطنطاوي وسلى الحفار الكزيري وفاضل السباعي وقمر كيلاني وكوليت خوري ومحمد أبو معتوق ومراد السباعي وغيرهم.

ومن أبرز وأهم هذه الأسماء اسم القاص والصحفي والإعلامي الكبير زكريا تامر الذي يعد من أكبر كتاب الستينات والسبعينات لا في سورية فقط بل في العالم العربي كله، إنه ترك أثرا عميقا في القصة السوربة القصيرة وأدخل إليها أساليب جديدة وأنماطا فنية متطورة، إنه أثار قضايا الفرد المهزوم و المحكوم بالهزم، وهموم المجتمع وعالجها بلغة صاخبة عنيدة تعبيرية ذاتية شعرية مكثفة، وأسلوب رائع غريب ممزوج بالسخرية والاستهزاء القائم على دمج العقلاني باللاعقلاني والشعور بالاشعور واليقظة بالحلم، إنه خط منذ بداياته الباكرة طريقا تختلف عن طريق الآخرين، وكسر الحواجز في القصة التقليدية السائدة، وفتح آفاقا جديدة وصوتا منفردا في هذا المجال، ولم يبال بنقد الناقدين وآراء المناهضين لأدبه الجديد، واحتل مكانا بارزا بين كتاب وقصاص العرب على وجه العموم و وجه الخصوص.

حياة زكريا تامر

ولد زكريا تامر في حي "البحصنة" أحد أحياء دمشق، في يناير ٢، عام ١٩٣١ م، لأسرة بسيطة، وتلقى تعليمه الابتدائي فيها، ولم تطل فترة تعليمه بسبب الفقر والإفلاس والفاقة، و ترك المدرسة وعمره ثلاثة عشر عاما واضطر للعمل في مهنة الحدادة القاسية في معمل لصنع الأقفال فأصبح حدادا ماهرا واستمر في هذا المهنة مدة تزيد على اثنتي عشرة سنة،^١ لم تمنع زكريا تامر مهنته وتوقفه من تحصيل العلم عند المرحلة الابتدائية من القراءة والكتابة، ولم يدفعه إلى الاستسلام للواقع الصعب، فكان قارئا نهما، عكف على تثقيف نفسه تثقيفا جيدا، فلم يستثن التراث الأدبي الإنساني، كما لم يستثن تمثل الأعمال الأدبية العالمية المعاصرة، فقرأ لسارتر وكافكا وكامو وغيرهم ممن أثروا مسيرة الأدب العالمي، كما قرأ في المذهب الوجودي والأدب التعبيري والعبثي والانطباعي والسريالي، وقد أثرت هذه القراءات في نهجه وأسلوبه تأثيرا بالغا التي غيرت مجرى حياته وانضم إلى جمعية الأدباء العرب ١٩٥٨ م التي كانت في محاولة جمع الأدباء وتوحيد صفوفهم لنشاط

^١ إمتنان عثمان الصمادي: زكريا تامر والقصة القصيرة، ص ٢٣.

^٢ نفس المرجع، ص ٢٣.

رابطة الكتاب السوريين^٣

تقلب زكريا تامر في أعمال ووظائف مختلفة، فمن عامل في معمل الحدادة انقلب إلى موظف في وزارة الثقافة (مديرية التأليف والترجمة، دمشق) وبقي به ما بين سنة ١٩٦٠-١٩٦٣ م، وفي عام ١٩٦٣ م أصبح مسؤولاً في مجلة "الموقف العربي" الأسبوعية، وفي عام ١٩٦٥ م عمل في مديرية النصوص في تلفزيون جدة بالمملكة العربية السعودية، كما عين في عام ١٩٦٦ م في مراقبة الكتب في وزارة الإعلام السورية، ثم مديراً للنصوص في التلفزيون العربي السوري، كما شغل رئيساً للجنة سيناريوهات أفلام الانقطاع الخاص في مؤسسة السينما في سوريا، وبعد ذلك تفرغ للعمل في اتحاد الكتاب العرب الذي كان أحد مؤسسيه، ورأس تحرير دوريته الشهرية "الموقف الأدبي" وعمل أيضاً رئيساً لتحرير مجلتي "أسامة" للأطفال و "المعرفة" الصادرتين عن وزارة الثقافة السورية، كما عين نائباً لرئيس اتحاد الكتاب العرب في المدة ما بين ١٩٧٥-١٩٧٣ م.^٤

انتقل زكريا للعيش في لندن عام ١٩٨١ م، وعمل في مجلة "الدستور" الأسبوعية، ثم نشر مقالاته السياسية والأدبية في معجم المجلات العربية. وكان من أبرزها مجلة "التضامن" ومجلة "الناقد" اللندنية التي نشر خلالها مجموعة من الأقاصيص والحكايات تحت زاوية "قال الملك لوزيره"، يحاكي التاريخ من خلالها، فينقل القارئ-بالحيلة التراثية- إلى أن الواقع بهومومه وسلبياته وكان ذلك منذ آب/٨٨-حزيران/١٩٨٩ م، كما نشر في مجلة الدوحة عدداً لا بأس به من المقالات في زاوية "خواطر تسر الخاطر" كرر خلالها الأسلوب الحكائي السالف.^٥

شارك زكريا تامر في مؤتمرات وندوات، عقدت في بقاع شتى من العالم، وكان رئيساً للجنة التحكيم في المسابقة القصصية التي أجرتها جريدة تشرين السورية عام ١٩٨١ م، والمسابقة التي أجرتها جامعة اللاذقية عام ١٩٧٩ م، وكان عضواً بلجنة المسابقة القصصية بمجلة "التضامن" بلندن،^٦ وقد ترجمت أعماله القصصية إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والبلغارية والروسية والألمانية،^٧ كما كتبت عنه الرسائل والأطروحات في الجامعات والكليات المختلفة عبر العالم، إنه تزوج، ولكن اسم زوجته غير معروف لدينا، أنجب ولدين، اسمهما أدهم وعمر.^٨

أما الجوائز المهمة التي نالها زكريا تامر حتى الآن من مختلف الجهات الثقافية والرسمية، فهي كما يلي:

- وسام الاستحقاق من السيد رئيس الجمهورية الدكتور بشار الأسد عام ٢٠٠٢ م.
- جائزة العويس للقصة عام ٢٠٠٢ م.
- جائزة ميترو بوليس الماجدي بن ظاهر للأدب العربي عام ٢٠٠٩ م.
- جائزة ملتقى القاهرة الأول للقصة القصيرة عام ٢٠٠٩ م.

^٣ إمتنان عثمان الصمادي: زكريا تامر والقصة القصيرة، ص ٢٤.

^٤ إمتنان عثمان الصمادي: زكريا تامر والقصة القصيرة، ص ٢٦-٢٥، وأيضاً أرشد يوسف عباس: مقال له تحت عنوان "مفارقة العنوان في قصص زكريا تامر" في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، العدد ٢، المجلد ٦، السنة السادسة، ٢٠١١ م، ص ٢.

^٥ إمتنان عثمان الصمادي: زكريا تامر والقصة القصيرة، ص ٢٧.

^٦ www.wikipedia.org.

^٧ بشار إبراهيم نايف: شعرية النص في خطاب زكريا تامر القصي، (أطروحة الدكتوراه) بإشراف الدكتور عبد الستار عبد الله، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٦ م، ص ٥.

^٨ د. أرشد يوسف عباس: مقال له تحت عنوان "مفارقة العنوان في قصص زكريا تامر" في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، العدد ٢، المجلد ٦، السنة السادسة، ٢٠١١ م، ص ٢.

أعماله القصصية

ظهرت له أول مجموعة قصصية "صهيل الجواد الأبيض" في عام ١٩٦٠م، تبنت طباعتها "دار مجلة الشعر". ثم تلتها مجموعة "ربيع في الرماد" عام ١٩٦٣م، و"الرعْد" عام ١٩٧٢م، و"دمشق الحرائق" عام ١٩٧٣م، و"النمور في اليوم العاشر" عام ١٩٧٨م، و"نداء نوح" عام ١٩٩٤م، و"سنضحك" عام ١٩٩٨م، و"الحصرم" عام ٢٠٠٠م، و"تكسير ركب" عام ٢٠٠٢م، وقد قامت دار رياض نجيب الريس في عام ١٩٩٤م بإعادة طبع المجموعات الست الأولى ثم أكملت فيما بعد طبع الباقي.

ولم يكتف زكريا تامر بكتابة قصص الكبار، وإنما قام بكتابة قصص موجهة للأطفال منذ عام ١٩٦٨م، فهو يقول في هذا الصدد: "يجب أن يكون للصغار الحق في قراءة قصص غير رديئة، حين أكتب قصصا للصغار لا أحاول البتة الهروب من عالم الكبار، إنما أبغي تحقيق المزيد من التوغل في عالم الكبار الحافل بالبؤس، كما أن الكتابة للصغار بالنسبة لي ليست تعبيراً عن اليأس من الكبار... ولا أتخيل الكتابة للصغار نوعاً من العودة إلى أيام الطفولة إني أكره أيام الطفولة، فهي تزخر أيضاً بالتعاسة. وعالم الكبار عندما يكون مشوهاً ومحروماً من الفرح الإنساني، فمن المؤكد أن صغاره ليسوا أطفالاً حقيقيين، بل من أن يكونوا أكثر من حيوانات صغيرة تتعذب دون أن تملك حنجرة قادرة على الاحتجاج، إني كتبت للأطفال لأنني أحب الأطفال".^٩

يقول أحمد محمد عطية: "...بالإضافة إلى عدد كبير من القصص القصيرة جداً للأطفال، تجاوز صداها الوطن العربي إلى أوروبا حتى حدود إسرائيل، فقد ترجمت إلى اللغات العالمية وشكلت قصصه بداية الطريق الصحيح لأدب أطفال عربي جديد يبث القيم الإنسانية والقومية والنضالية... ومن خلال قالب فني عصري، ولغة عربية بديعة، ليسهم في تكوين الإنسان العربي الجديد".^{١٠}

لقد كتب زكريا تامر ما يزيد على مائة وخمسين قصة للأطفال وصدرت له عدة مجموعات قصصية منذ عام ١٩٧٣م، حينما صدرت له مجموعة "لماذا سكت النهر" التي تضم أكثر من خمسين قصة، ثم تلتها مجموعة "البيت" عام ١٩٧٥م، وقالت الوردة للسنونو" عام ١٩٧٧م، و"بلاد الأرانة" عام ١٩٧٩م^{١١} وعدد من القصص التي نشرها في دار الفتى العربي، ومنها "يوم بلا مدرسة" و"الطفل" و"المطر" و"بيت للورقة البيضاء" وغيرها.^{١٢}

وقد تمتاز قصص الأطفال لزكريا تامر بإثارة الانتباه للغة ومفاهيمه الخاصة بالطفولة، وقد ابتعد عن الأسلوب التقليدي السائد القائم على الموعظة والإرشاد والتلقين الذي لا ينمي عند الطفل إلا مزيداً من الإذعان والرضوخ، فهو يقول: "ولا بد من التنويه بأن جيل الأطفال لا يمكن أن ينمو النمو السليم في مجتمع يعاني الأباء والأمهات فيه الظلم والقهر والهوان والعوز، لذا، فإن الاهتمام الحقيقي بالأطفال يتطلب في الوقت نفسه الاهتمام بالكبار أيضاً، فتحريز الكبار مما يشوه إنسانيتهم ويحول دون تطورهم هو الخطوة الأولى التي لا بد منها".^{١٣}

^٩ روبرت ب. كامبل: أعلام الأدب العربي المعاصر-سير ذاتية، ص ٣٩٥-٣٩٤.

^{١٠} أحمد محمد عطية: فن الرجل الصغير في القصة العربية القصيرة، ص ١٠١.

^{١١} د.أرشد يوسف عباس: مقال له تحت عنوان "مفارقة العنوان في قصص زكريا تامر" في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، العدد ٢، المجلد ٦، السنة السادسة، ٢٠١١م، ص ٢.

^{١٢} إمتنان عثمان الصمادي: زكريا تامر والقصة القصيرة، ص ٢٧.

^{١٣} زكريا تامر: الأطفال والمستقبل، مجلة المعرفة، العدد ٢١٥-٢١٤، ٢١٥، ١٩٨٠م، ص ٥.

الدراسة الموضوعية لقصص زكريا تامر

إن الأعمال القصصية لزكريا تامر كلها تدور حول عدة موضوعات أساسية، وهي: الوطن والحياة العادية والمجتمع الإنساني والكبت السياسي والقمع الاجتماعي والجنس والحب والجوع والخبز والحرية وغير ذلك، إنه رسم في قصصه أشكال القمع والعنف وما يعاني منه الإنسان على جميع الأصعدة والجوانب، سواء كان من المجتمع أو الحكومات أو الأسرة أو الحاجات، إنه يتحدث عن حال الإنسان مع الدولة والنظام والشرطة والقانون والعدالة، ويعبر عن العنف والكامن في الإنسان، إنه دعا إلى الحرية الكاملة من كل نوع القيود السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وإلى نبذ القمع والظلم والقهر وإعادة العزة والكرامة إلى الإنسان، استحضرت الذات الإنسانية بدواخلها وبأعبائها وآلامها وآمالها بواقعها المعاش وواقعها المضمون بسحر الحلم اللامتحقق، وصور معاناة العمال والفلاحين وأصحاب صغار الكسبة والمرأة، وصور ألام المكوددين والمكدوحين مع كل صورها وأشكالها. فنحاول هنا الكشف عن بعض القضايا المهمة التي تناول زكريا تامر في قصصه القصيرة.

قضية المجتمع: عبرت قصص زكريا تامر عن المجتمع الشرقي تعبيرا حيا، ورسمته رسما دقيقا، كما كشفت النقاب عن حقيقته بشخصه وعاداته وتقاليده الشعبية، وأثار هموم مجتمع الطبقة البرجوازية الصغيرة وقضاياها، إنه عبر عن مجتمع يمارس العنف والقمع والشدة والأنواع المختلفة من العذاب على الإنسان، فيحطمه ويجعله تائها غربيا حتى في مجتمعه، وينذهب إلى القاع العميق من اليأس والقنوط، حتى ما بقي له إلا الانتحار والموت الذي هو الطريق الوحيد للخلاص من العذاب الدنيوي، فلذلك نرى أبطال زكريا تامر دائمون يبحثون عن الانتحار والموت لأنهم يواجهون الكبت السياسي والاجتماعي.

النظام الطبقي: النظام الطبقي أي الفروق بين الإنسان والإنسان هي أهم القضايا التي أثارها زكريا تامر في قصصه، من وجهة نظره إن هذا النظام هو أكبر داء للمجتمع، وبه تنبع آفات اجتماعية أخرى، كالعنف والقمع والجوع وغير ذلك، إن الجوع يدفع الإنسان إلى مأزق كبير، يستغل زكريا تامر هم الجوع عند أبطاله ليعبر عن هموم إنسانية كبيرة بل تتحول هذه الهموم أحيانا إلى ملحمة سريالية مفعجة.

قضية الحرية: إن زكريا تامر من أكبر الدعاة إلى الحرية المطلقة، والحياة الخالية من كل زيف وقيود وحدود، غير المرهونة بزمان محدد ولا هوية واضحة، إنه رفض جميع أشكال الحدود والقيود الاجتماعية والسياسية، ورفض كل القيم الأخلاقية والدينية، إنه نادى لحرية الفرد والمجتمع وناقم السلطة على أي صورة كان، إن هذه القضية تتجلى في معظم أعماله القصصية وأفكاره حتى تشكل محورا رئيسيا لها، وخاصة تتمظهر هذه القضية في "تلج آخر الليل" و "الرجل الزنجي" و "الصقر" و "صهيل الجواد الأبيض" و "التناؤب" و "رحيل إلى البحر" و "موت الشعر الأسود" و "النسيان" و "الراية السوداء" و "الخراف" و "الشنفري والليل" و "شمس الصغار" وغير ذلك.

- السياسة: وقد تناول زكريا تامر قضية السياسة أيضا في قصصه الإبداعية ودعا إلى نبذ كل نوع من الاستبداد والقهر السياسي والسلطة السياسية، وقد تظهر هذه الفكرة جليا في قصص "التناؤب" و "رحيل إلى البحر" و "السجن"
- الجنس: إن قضية الجنس جزء مهم لقصص زكريا تامر وخاصة بعد ما عرف أبطاله بالعبث واللامبالاة والشرب، وهم دائم البحث عن الفتيات التي تقضي حاجاتهم الجنسية، كما يقول بطل قصة "الرجل الزنجي" "أنا لا أحب سوى

النساء اللواتي استطيع مضاجعتهم".^{١٤} وكذلك نجد الملامح الجنسية في قصة "وجه القمر" وقصص أخرى بكل وضوح وشفافية، إن شخصية المومس شخصية مستقلة في أعماله التي ترى ملامحها في قصص "رجل من دمشق" و"القرصان" و"الزهرة" و"الأغنية الزرقاء الخشنة" و"البدوي" و"رحيل إلى البحر" وغير ذلك.

- قضية المرأة: ومن أهم القضايا التي أثارها زكريا تامر في قصصه هي قضية المرأة، حتى نرى هذه القضية في معظم قصصه، إنها جاءت في صورة مختلفة وتحت تصورات ووصفات مميزة.
- السلطة الذكورية: ومن أهم القضايا التي أثارها زكريا تامر في أعماله القصصية هي السلطة الذكورية، إنه دعا إلى نبذ هذه السلطة واعتناق الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة، وعد السلطة الأبوية من أسوء صورة للسلطات الذكورية، يساهم الأب في أعمال زكريا تامر مساهمة فعالة في قمع الفرد والحرية، فهو رجل سوء، متحجر، متزمت، يصدر الحكم لكل من ابنه وابنته وزوجته، حتى يقيدهم بكثير من القيود، ولا يمنح لهم نافذة للحرية، حتى يمنعهم من القراءة والكتابة والدراسة ويمنع أولاده من أن يحيا ويتزوج عن رضاها.

الخصائص الفنية لقصص زكريا تامر:

إن زكريا تامر أديب من نوعه الوحيد، هو شاعر القصة القصيرة بلا نزاع وفنائها الأول، شق لنفسه منذ بداياته الباكرة طريقا فريدة في القص ولا يزال يواصل المحفر فيها حتى الآن، عالمه القصصي الخصيب عالم غض جميل لا يضاهي برغم أنه مصوغ من مفرداته، ولا يحاكيه بالرغم من أنه يكشف لنا قوانينه الداخلية العميقة، إن أعماله الإبداعية وقصصه الرائعة كلها تتميز بالجدّة والأصالة والتفرد، إنه ذهب بها إلى آفاق لا يمكن لأحد أن يقلدها، وأسبابه تعدد إلى فريدة البناء القصصي القائم على دمج العقلاني باللعقلاي، والشعور باللاشعور، اليقظة بالحلم، المعاش بالمتخيل إضافة إلى هيمنة عنصر التخيل البلاغي القائم على الصورة والمجاز والانتهاك المنظم للغة والعناصر المادية وعناصر الواقع الذي يؤدي إلى هيمنة الانفعال على حساب صرامة المنطلق العقلاي.^{١٥}

إنه كسر الحواجز في القصة التقليدية السائدة وتجاوزها إلى التجريب وفتح آفاقا جديدة، وأثار صوتا جديدا في هذا المجال، إنه خلص القصة من كل زيادة غير ضرورية ومن كل جزئية لا توحى بعدد كبير من الدلالات، ولذلك نرى بعض الكتاب والنقاد لا يعترفون بأدب تامر القصصي الجديد ولا يرون فيها شئ يمكن وصفه بالقصص. فهنا نحاول إبراز بعض الملامح الفنية لقصص زكريا تامر القصيرة.

البراعة في اختيار العناوين: لقد تفند زكريا تامر وأظهر بحذقه وبراعته ونبوغه وتجربته العميقة في اختيار العناوين لمجموعاته وقصصه، إن هذه العناوين تشير إلى فلسفته وأفكاره العلمية والأدبية.

- الفانتازيا: نجد الفانتازيا في مجموعات زكريا تامر جميعها مع تفاوت في نسب الاستخدام لهذه الآلية في كتابة القصة، فهو في "صهيل الجواد الأبيض" و"ربيع في الرماد" و"الرعد" و"دمشق الحرائق" و"النمور في اليوم العاشر" و"نداء

^{١٤} .الرجل الزنجي، ص ١٥.

^{١٥} .عبد الرزاق عيد: العالم القصصي لزكريا تامر، ص ٧.

نوح" يتدع أجواء فانتازية غرائبية تشبه أجواء قصص إدغار آلان بو وكافكا القاسية، ولكن بشكل أكثر شاعرية وعمقا من حيث التصاقها بالواقع، ألما في المجموعات الأخرى فهي تختلف فيها إلى حد ما.

● السرد والحوار: إن السرد والحوار من أهم العناصر الفنية في العمل الأدبي، وخاصة في الرواية والقصة، لقد نوع زكريا تامر في استخدام هذه الأساليب السردية، فاستخدم أسلوب السرد المباشر وغير المباشر، إلا أن السرد غير المباشر هو السمة الغالبة في جميع قصصه كما نراه يستخدمه في جميع قصص المجموعة "صهيل الجواد الأبيض" و قصص المجموعات الأخرى، لقد أكثر زكريا تامر من الإيحاءات والرموز والتشبيهات في أعماله القصصية وكذلك أكثر استخدام لغة الكوايبس التي تبتعد عن اللغة الواقعية لتلعب دورا وظيفيا يظهر الواقع خارجا على المنطق العقلاني، فيمزج زكريا بين الشعر والحلم والرسم ويجمع بين التجريد الشعري وغرابة الحلم والإيحاء والرمزية والانتقال التدريجي من الحلم الشعري إلى حدود الكابوس كما في قصة "القبو".

● الشخصية: تحتل الشخصية في أعمال زكريا تامر القصصية مكانة بارزة، خاصة بعد ما أسقط هو الحادثة من محور القصة، فهي تمتاز عنده بالعمومية، فهي ذات طباع حادة وغريبة، وذات صفات باردة أو جامدة لا حياة فيها ولا نشاط، وسلوكهم غالبا مستهجن وغير مفهوم للوهلة الأولى، ربما كان غير منطقي البتة، لا عمل لها سوى العبث والضياع والشرب والجنس ودائم البحث عن الخبز والجنس والحب والحرية.

● الزمان والمكان: إن المكان في قصص زكريا تامر هو نموذج لمدن كثيرة متشابهة في الظروف والأحوال، يناقش قضية الفرد المهزوم أو المحكوم بالهزم الذي يعيش في كل زمان ومكان، بدون تسمية الأماكن تقريبا، أما الزمان في أعمال زكريا تامر فهو ليس بمحدود بزمان لأن القضايا المطروحة في أعماله كالقمع والقهر والظلم والحرمان والبيؤس والبطالة والشوق إلى المرأة لا تنتهي عموما إلى زمان محدود، بل نجد جذورها في عمق التاريخ العربي خلال فترة تمتد سنين طويلة، إلا أنها توحى بزمن الغربة والعزلة وغربة الذات عن كل ما حولها ولا معقوليتها، لقد اتكأ زكريا تامر في بعض أعماله على تسلسل الزمن التقليدي (الماضي والحاضر والمستقبل)، فتطور الأحداث تبعا لتسلسل ثاب كما في "شمس صغيرة" التي بدأت بزمن السرد الماضي، مروراً بالحاضر، ثم يعرج إلى المستقبل.

● الإيقاع: نرى ملامح الإيقاع والانسجام الفني في جميع أعمال زكريا تامر، فهي تركز على فكرة فحواها: أن على الإنسان أن يصوغ وجوده بانسجام، لا أن يحيا التناقض في سلوكه الظاهري والصراع في أعالمه الباطني، وقد ركز الكاتب على هذه الحقيقة الفلسفية والنفسية من خلال عرضه للشخصيات مأزومة في الغالب، وغير منسجمة في العموم، مما يجعل قراءة قصصه في ضوء الفلسفة وعلم النفس لها ما يسوغها.١٧

^{١٦} نفس المرجع.

^{١٧} المرجع نفسه، ص ٢٠.

أما لغته فهي تتسم بالتكثيف والعنف والشدة والحدادة والصلابة والصحريّة والسخرية والاستهزاء والشعرية والتعبيرية ونوع من الخشونة لا ماء فيها، ومن هنا نرى لغة زكريا تامر في قصصه جاءت مطابقة للقصة التي تناولها والشخصية التي تتكلم بها والبيئة التي يجري فيها حدث القصة، إنه تناول في قصصه القضايا الاجتماعية والسياسية والهموم الإنسانية، إنه تناول فيها أنواعا مختلفة من القمع والقهر والعنف والظلم، إنه عالج معاناة الفلاحين والمكدودين والمكدوحين وصغار الكسبة، إنه أثار قضايا المرأة والإنسان المهزوم أو المحكوم بالهزم، إنه حارب ضد كل نوع من السلطة والكبت السياسي والاجتماعي والاقتصادي، إنه دعا إلى الحرية المطلقة ونبذ كل نوع من القيود والحدود، والعادات والتقاليد البالية المتحجرة، والاضطهاد والتمزق الإنساني، فجاءت لغته مسيرة مع هذه الموضوعات والقضايا والأمور، فجاءت مليئة بالحدة والصلابة والتوتر والعنف، ناقلة لنا أنماط القهر والظلم والاضطهاد والكبت والتمزق الإنساني التي تعانيه الشخصية القصصية، عاكسة لنا نفسية أبطاله المهزومين الذين يتسمون بالسيادة والعدوانية أحيانا، والانهزامية أحيانا أخرى، إنها امتازت بالإيجاز الشديد والتكثيف الواضح والاقتصاد في الكلمة والخبرة المميزة في اختيار المفردة الدالة وصنع القفلة المحكمة، وكذلك امتازت لغته بالانفعالية، وهي الشائعة في الأدب لأنها تجسد الانفعالات إزاء موضوع معين ويسمى بعضها باللغة الشعرية، لأنها تمتاز بحالات الشعور وتنوعاته (الرمزية والتكثيف والحدس والتصوير)، وباعتماد اللغة العربية القصصية على العناصر الإيحائية صارت القضية وسطا بين القصة والشعر، إذ أصبح الكاتب يولد جملا شعرية ذات كثافة عالية وخصوبة بيانية وصور إيحائية، وذلك عندما يمازج بين الفكرة والإحساس، واللغة الشعرية تباين اللغة التقليدية، وهي لغة ذات جمل قصيرة متلاحقة ومتواترة مكثفة غنية بالإيحاء، كما تشارك في صياغة الحدث وتوظيف الأسطورة وتعتمد إلى التكرار وتوظيف الكلمات توظيفا جديدا. ١٨

وقد تميز زكريا تامر بقدرته على استعمال مفردات اللغة العربية بشكل كبير، وتشكيل الصور التعبيرية والرمزية المثيرة مما يجعل القارئ يحس وكأنه في عالم من الأساطير والرؤى والسحر مع العلم أنها صورة من العالم اليومي المؤلف. ١٩

تكثر في قصص زكريا تامر الألفاظ الدالة على أنماط الوحدة والغربة والعزلة والكآبة والشقاء، حتى إننا لا نستطيع أن نلاحظ جملة تخلو من هذه الألفاظ، وكلها تصب في انهزام البطل أمام ذاته ومجتمعه سواء أكان هذا الالتزام مبررا أم غير مبرر من ذلك. ٢٠

^{١٨} إمتنان عثمان الصمادي: زكريا تامر والقصة القصيرة، ص ١٤٧.

^{١٩} . د.سمير قطامي: أزمة الإنسان في قصص زكريا تامر، مجلة الدراسات مجلد ١٠، العدد ١، ١٩٨٣م، ص ٢٣، نقلا عن كتاب "زكريا تامر والقصة القصيرة" للصمادي، ص ١٤٧-١٤٦.

^{٢٠} إمتنان عثمان الصمادي: زكريا تامر والقصة القصيرة، ص ١٥٢.

الخاتمة

على كل حال إن زكريا تامر قاص كبير وأديب عملاق وصحافي كبير لا في سورية فقط بل في العالم العربي كله، الذي ترك أثرا عميقا من خلال أعماله القيمة وقصصه الرائعة الفريدة وأدخل إليها أساليب جديدة وأنماطا فنية متطورة، و أثار قضايا الفرد المهزوم و المحكوم بالهزم، وهموم المجتمع وعالجها بلغة صاخبة عنيدة تعبيرية ذاتية شعرية مكثفة، وأسلوب رائع غريب ممزوج بالسخرية والاستهزاء القائم على دمج العقلاني باللاعقلاني والشعور باللاشعور واليقظة بالحلم، وخط منذ بداياته الباكرة طريقا تختلف عن طريق الآخرين، وكسر الحواجز في القصة التقليدية السائدة، وفتح آفاقا جديدة وصوتا منفردا في هذا المجال، ولم يبال بنقد الناقدين ولأراء المناهضين لأدبه الجديد، واحتل مكانا بارزا بين كتاب وقصص العرب على وجه العموم و وجه الخصوص. وبالحقيقة هو أحد من رواد أدب العبث والضباع، الذي خدم الأدب العربي الحديث والقصة القصيرة السورية خدمة جبارة من خلال أعماله القيمة وقصصه الرائعة الفريدة التي لا يمكن أن تمحى آثارها إلى زمن طويل.

المصادر والمراجع

- ١- إمتنان عثمان الصمادي: زكريا تامر والقصة القصيرة، دائرة المكتبة الوطنية عمان ١٩٩٥ م
- ٢- بشار إبراهيم نايف: شعرية النص في خطاب زكريا تامر القصصي، (أطروحة الدكتوراه) بإشراف الدكتور عبد الستار عبد الله، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٦ م
- ٣- د. أرشد يوسف عباس: مقال له تحت عنوان "مفارقة العنوان في قصص زكريا تامر" في مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، العدد ٢، المجلد ٦، السنة السادسة، ٢٠١١ م
- ٤- أحمد محمد عطية: فن الرجل الصغير في القصة العربية القصيرة، اتحاد الكتاب العرب- دمشق ١٩٧٨ م
- ٥- زكريا تامر: الأطفال والمستقبل، مجلة المعرفة، العدد ٢١٥-٢١٤، ١٩٨٠ م
- ٦- عبد الرزاق عيد، العالم القصصي لزكريا تامر (وحدة البنية الذهنية والفنية في تمزقها المطلق)، ط١، دار الفارابي، ١٩٨٩ م.
- ٧- د.سمير قطامي: أزمة الإنسان في قصص زكريا تامر، مجلة الدراسات مجلد ١٠، العدد ١، ١٩٨٣ م،
- ٨- تامر، زكريا. قصة (الرجل الزنجي)، مجموعة (صهيل الجواد الأبيض). س للكتب والنشر، لندن رياض الري - بيروت، ط٦، ٧٧٧٢ م،
- ٩- روبرت ب. كامبل: أعلام الأدب العربي المعاصر-سير ذاتية، مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر بيروت ١٩٩٦ م

